

في عصر متخلف يقتات الرجعية ويرسف في تقاليد بالية ويشهر الدين المفتري عليه سلاحا في وجه كل مصلح، وذلك ما يبرز كفاح الشابي، ويجعله في مصاف رواد الوطنية الكبار، الذين يفتحون مغاليت العقلية البشرية، أو على الأقل يعالجون أفعالها، تارة بالترغيب وإبراز مفاتن الوطن، والدعوة الى تغذية الروح من ينايعه، وتارة بالحث والدفع الحاني الرقيق، وأحيانا بالندير الصائح المجلجل:

والظاهرة الجديرة بالالتفات أن الشعب ظهر بمعناه الكامل في شعر الشابي في وقت مبكر، وبطريقة تلقائية، يوم كان ينتفض انتفاضة الحرية في بلاد العروبة كلها، وأن الوطنية بمعناها الأمل لازمت هذه الظاهرة في شعر الشابي، فلقد اندمج في آمال شعبه وآلامه لا ليخدعه ولا ليبيكي معه، ولكن مبشرا بالحرية يدفع الشعب نحو فجرها دفعا قويا، وما زالت قولته تتردد على ألسنة صبيان العروبة وكهولها وشبابها وشيوخها في كل مناسبة واعية، حتى باتت أنشودة من أناشيد الثورة، تعتمل في كل صدر وتتغلل في كيان الأحرار، وتضيء حروفها كسطور الإنجيل في قلوب القديسين.

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

ولم تكن الوطنية عند الشابي خديعة يستتر خلف جدرانها، ليكسب مجدا رخيصا، أو يدعي بطولة زائفة، أو يتزعم فئة من الناس، بل